كلمة نفيسة عن

تلازم الشريعة والطريقة

ألقاها فضيلة الشيخ المحدث عبد الحفيظ المكي رحمه الله

في المؤتمر العلمي الإسلامي لخدمة الإنسانية التابع لـ

«جائزة الإمام محمد قاسم النانوتوي الإسلامية العالمية»

الذي انعقد في جمهورية جنوب أفريقيا في عام ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤ء

www.islaminsight.org

جميع الحقوق محفوظة للناشر

2004

Email: umaranwer@gmail.com
Cell: +923333900441

كلمة نفيسة عن تلازم

الشريعة والطريقة

القاها فضيلة العلامة المحدث المربي

الشيخ / عبد الحفيظ المكي (رحمة الله عليه)

الناشر

دار الخليل للنشر والتوزيع

راولبندي - باكستان

هاتف / ٠٠٩٢٥١٥٥٥٣٢٤٨

Scanned with CamScanner

كلمة الناشر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فهذه كلمة نفيسة عن «تلازم الشريعة والطريقة» ألقاها فضيلة العلامة المحدث الشيخ عبدالحفيظ المكي في «المؤتمر العلمي الإسلامي لخدمة الإنسانية» التابع لـ«جائزة الإمام محمد قاسم النانوتوي الإسلامية العالمية» الذي انعقد في جمهورية جنوب أفريقيا في مدينة آزادوِل وذلك بالدورة الثانية عام (١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م).

وقد حظيت بالقبول العام وخاصة بين أهل العلم والدين والثقافة، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجيلزية ونشرت.

والآن نتشرف بنشرها كما هي باللغة العربية راجين من الله القبول، وأن تكون صدقة جارية للمؤلف والناشر ولكل من سعى في ذلك بأي صورة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وبارك وسلم تسليمًا.

الناشر

دار الخليل للنشر والتوزيع

راولبندي - باكستان

١/ ٥/ ١٤٣٦هـ

Scanned with CamScanner

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ لَـمُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».

قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله:

«من تفقَّه ولم يتصوّف فقد تفسَّق، ومن تصوف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق».

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه أجمعين.

أما بعد: فإن «الشريعة والطريقة» اصطلاح عند السادة الصوفية مذكور كثيرًا في كتبهم، وأصله مستنبط من حديث جبريل المعروف وهو:

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرىٰ عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله،وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة،**

وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق، فلبثت مليًا، ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من السائل»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» رواه مسلم، ورواه بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في «صحيحه»، وغيره أيضًا في كتبهم.

ففي هذا الحديث الشريف بيّن الرسول الكريم صلى الله [illegible] أنّ جبريل عليه السلام أتى ليعلّمهم دينهم،

فالحديث يشمل الدين كلّه.

وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» بذيل هذا الحديث: «قال القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له: «أم السنة» لما تضمنه من جُمل علم السنة، وقال الطيبي: لهذه النكتة استفتح به البغوي كتابيه «المصابيح» و«شرح السنة» اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً، وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه» انتهى.

وفي الحديث قُسِّم الدين إلى شعب ثلاث هامة: «الإسلام والإيمان والإحسان»، فالإسلام: المراد به الأعمال الظاهرة سواء قولية أو بدنية أو مالية أو غيرها، والتي يقال لها: اصطلاحًا: «علم الفقه»، ويقال للمهتمين به

والمتخصصين فيه: «الفقهاء».

والإيمان: المراد به جميع أنواع العقائد، ويقال له اصطلاحًا: «علم الكلام» أو «علم التوحيد» أو «علم العقائد».

والإحسان: المراد به الأحوال القلبية والكيفيات الباطنة، ويقال لها اصطلاحًا: «علم التصوف» أو «الطريقة» أو «علم الأخلاق»، ويقال للمهتمين به والمتخصصين فيه «الصوفية».

وحيث أنه لا خلاف في العقائد الأساسية بين الفقهاء والصوفية حيث أنهم جميعًا ينتسبون إلى «أهل السنة والجماعة» كما هو مقرر ومعلوم، وقد صرح به الإمام القشيري في «الرسالة»[1] والإمام أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني في

---

(١) قال الإمام القشيري في الرسالة ببداية الفصل الرابع «أعلام التصوف» ما نصه:-

اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم: (الصحابة)، ولما أدرك أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة: (التابعين)، ورأوا ذلك أشرف سمة.

ثم قيل لمن بعدهم: (أتباع التابعين).

عدة من مكاتيبه[١] والإمام أحمد بن عبدالرحيم الشاه ولي الله الدهلوي في «القول الجميل» وغيره، وهو أمر متفق عليه بين أئمة التصوف.

= ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم عناية شديدة بأمر الدين: (الزهاد والعباد)، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا: أن فيهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم من طوارق الغفلة باسم (التصوف) واشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة، انتهى كلام القشيري. قلت: فعلم منه أنه يشترط في الصوفي أن يكون من أهل السنة والجماعة في العقائد، لأن خواص أهل السنة هم الذين انفردوا بهذا الوصف، أما أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والروافض وغيرهم فلا يمكن أن يكونوا صوفية، ولا يحق لهم أن ينتسبوا للتصوف، والله أعلم.

(١) ذكر الإمام الرباني المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي المدني رحمه الله في كتابه البديع «تلازم الشريعة والطريقة» في فصل «الطريقة» صـ٩٩ ما نصه:

ويقول (الإمام المجدد أحمد السرهندي) في رسالة أخرى قدس روحه: (بعد تصحيح العقائد من الضروري جدًا موافقة رأي أهل السنة والجماعة الصائب (المأخوذ من الكتاب والسنة) وأيضًا لا مفر أبدًا من أداء الفرائض والواجبات واجتناب المحرمات)، انتهى.

لذلك فإن كثيرًا من العلماء يقسمون الدين على هاتين الطبقتين: الفقهاء والصوفية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي الحراني في «الفتاوى» جـ١١: «وإذا عرف منشأ التصوف كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد».

ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي الحنبلي رحمه الله في القسم الثالث من مجموع مؤلفاته صـ٣١: «اعلم أرشدك الله أن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدىٰ الذي هو العلم النافع، ودين الحق الذي هو العمل الصالح، إذا كان من ينتسب إلى الدين منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به: كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين» انتهى.

والمراد بالنوعين المذكورين كما لا يخفى: « الفقه

والتصوف»، وهو الذي يطلق عليه: «الشريعة والطريقة» في اصطلاح السادة الصوفية، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما هو مقرر ومعلوم.

والشريعة والطريقة لا تنفك إحداهما عن الأخرى، وكل واحدة منهما بدون الأخرى خطر على المؤمن.

وبيان ذلك:-

إن الإنسان لم يخلقه الله سبحانه وتعالى عبثًا بل خلقه وبعثه إلى هذه الدنيا لأمر هام ومقصد عظيم، وفي ذلك يقول سبحان وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ويقول الإمام الآلوسي في تفسيره: «أي ليعاملكم معاملة من يختبركم... وأصل البلاء: الإختبار»، انتهى.

فالناس كلهم جيء بهم إلى هذه الدنيا للإختبار والإمتحان، مَن الذي يحسِن العمل ويهتم بصلاحه وإحسانه فينجح ويفوز ومَن الذي لا يهتم بصلاح العمل وإحسانه بل

يغويه الشيطان فيسوء عمله ويقع في محارم الله فيرسب في الإختبار ويخسر الدنيا والآخرة.

فالمؤمن دائمًا همه إصلاح عمله فيراقب باهتمام جميع تحركاته وأفعاله صغيرًا كان أو كبيرًا أن تكون وفق مرضاة الله الخالق المالك حتى لا يتحسر عند لقائه والوقوف بين يديه، وقد نبه الله المؤمنين إلى ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] قال الإمام ابن كثير في تفسيره: «أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم».

وقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أنهم إذا اهتموا بالأعمال الصالحة في حياتهم الدنيا ليلاً ونهارًا وفي كل صغيرة وكبيرة وفي كل حين فسيكرمهم بكل خير وسعادة في هذه الدنيا، ثم إذا ماتوا في حياتهم البرزخية في القبر، ثم يوم

القيامة بعد البعث من القبور، ثم بعد ذلك في الآخرة ينجيهم الله من النار ويدخلهم الجنة خالدين فيها أبدًا، فقد قال عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «حياة طيبة» قال: «السعادة» كذا في «الدر المنثور» للحافظ السيوطي رحمه الله.

أي أن الله سبحانه وتعالى سيكرمه بجميع أنواع السعادة في هذه الدنيا، والسعادة محلها القلب، فلو ابتلي المؤمن الذي يهتم بالأعمال الصالحة في هذه الدنيا بأنواع من المصائب كالمرض والفقر ونحوه فإنّ الله سيكرمه بالسعادة القلبية ببركة الأعمال الصالحة التي يهتم بها.

ثم إذا مات - والموت لابد منه «فكل نفس ذائقة الموت» - فإنّ الله سيسعده في حياته البرزخية ويكرمه بكل خير في قبره

ويجعله روضة من رياض الجنة.

(وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن في قبره لفي روضة خضراء فيرحَّبُ له قبره سبعون ذراعًا وينوّر له كالقمر ليلة البدر**». رواه أبو يعلى وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له.

وفي حديث طويل رواه الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ (عن العبد المؤمن) قال: «**ويأتيه رجل حَسَن الوجه حَسَن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت**

فوجهك الوجه الحَسَن يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة ربّ أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي ... الخ» الحديث، كذا في «الترغيب» للمنذري، وقال: هذا الحديث حديث حسن).

ويمكث العبد المؤمن الصالح هكذا في قبره سعيدًا مسرورًا حتى يبعث الله الناس يوم القيامة ليحاسبهم.

ويكون الناس يومئذ على أحوالٍ مختلفة، فبعضهم يكون كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] ، وبعضهم كما يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٢] .

في ذلك اليوم المهيب المخيف الذي كان مقداره خمسين

ألف سنة يخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ أن المؤمنين الذين كانوا يهتمون بالأعمال الصالحة في حياتهم الدنيا سيكرمهم الله بفضله، ويقصِّر لهم هذا اليوم رحمة بهم ويكرمهم بأنواع من كرمه في هذا المقام الخطير.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة، فقيل: ما أطول هذا اليوم؟ قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة»**. رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في «صحيحه».

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر رواه عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما عن أحوال يوم القيامة فيه: **«قالوا: فأين المؤمنون يومئذ؟** (أي يوم المحشر) **قال: توضع لهم كراسي من نور ويظلِّل عليهم الغمام، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار»**. رواه الطبراني وابن حبان في «صحيحه».

Scanned with CamScanner

وبعد ذلك تأتي الملائكة وتأخذ هؤلاء السعداء الذين كانوا يهتمون بالأعمال الصالحة في الحياة الدنيا إلى الجنة، وما أدراك ما الجنة؟

يقول تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٧-٧٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشِبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. رواه مسلم والترمذي.

فالله سبحانه وتعالى وعد الذين يهتمون بالعمل الصالح في هذه الحياة الدنيا بأن يكرمهم بكل خير ونعمة وسعادة في هذه الحياة وفي القبر ويوم القيامة، ثم في الآخرة يدخلهم الجنة حيث يمكثون فيها ويتمتعون إلى أبد الآباد، نرجو من البارئ الكريم أن يمنّ علينا بفضله وكرمه فينجينا من النار ويدخلنا الجنة بمنه وإحسانه آمين.

فالمطلوب من قِبل الله هو الإهتمام والمداومة على العمل الصالح في كل حين وفي كل أمرٍ.

ولوجود العمل الصالح لابد من أمرين وهما: العلم،

وإصلاح القلب.

وقد قال ﷺ عن العلم: «هو إمام العمل، والعمل تابعه» في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي رواه ابن عبدالبر في «كتاب العلم» وحسنه.

وروى ابن ماجة في «سننه»: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

فلابد من العلم قبل العمل، وكيف يعمل شيئًا بدون علمه، وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه» في «كتاب العلم»: «باب العلم قبل القول والعمل». قال شيخنا الإمام الرباني محمد زكريا الكاندهلوي المدني رحمه الله بذيله في «الكنز المتواري في معادن لامع الدراري وصحيح البخاري»:-

أثبت المصنف بهذا الباب: أن العلم من حيث هو هو مقدم على العمل ذاتًا ... وقال العيني: أراد البخاري: أن

الشيء يُعلم أولاً ثم يُقال ويُعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف، لأنه عمل القلب»، انتهى.

وبما أن العلم إمام العمل وطلبه فريضة، ولأهميته العظمى وردت في نصوص القرآن والسنة فضائل عظيمة للعلم والعلماء، وهي معلومة ومشهورة.

منها: عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»، رواه البخاري ومسلم، ورواه الطبراني في «الكبير» ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يا أيها الناس، إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء**».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم**

رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه».

ولكن يجب أن يعلم أن الفضائل المذكورة في القرآن والسنة هي للعلم النافع وللعلماء الذين يعملون وفق علمهم، وقد ورد وعيد شديد في حق الذين لا يعملون وفق علمهم، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥]، قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية:-

يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها: مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل

أسفارًا، أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيًا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وذكر الإمام السيوطي في «الدر المنثور»: أخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ قال: كتبًا لا يدري ما فيها، ولا يدري ما هي، يضرب الله لهذه الأمة أي أنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم.

وعن منصور بن زاذان قال: «نبئت أن بعض من يلقى في النار تتأذى أهل النار بريحه فيقال له: ويلك ما كنت

تعمل؟ ما يكفينا ما نحن فيه من الشر حتى أبتلينا بك وبنتن ريحك؟ فيقول: كنتُ عالما فلم انتفع بعلمي». رواه أحمد والبيهقي.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمّ إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ومن قلبٍ لا يخشع ومن نفسٍ لا تشبع ومن دعوةٍ لا يستجاب لها». رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابه فيدورها كما يدور الحمار بِرَحَاه فتجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان، ما شأنك ألست كنتَ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»، قال: وإني سمعته يقول يعني النبي ﷺ: «مررت ليلة أسري بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين

يقولون ما لا يفعلون». رواه البخاري ومسلم واللفظ له، كذا في «الترغيب».

فعُلم أن العلم لوحده لا يكفي بل لابد من العمل بموجبه حتى يوجد العمل الصالح.

وصلاح العمل ربطه الخالق عز وجل بصلاح القلب، فقد ثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه في الحديث أنه قال: «**ألا إن في الجسد لمضغةٌ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، والمراد بصلاح القلب أن يُتطهَّر ويُصفَّى من جميع أنواع الرجس والرذائل القلبية التي وردت مذمتها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعدها العلماء من الكبائر: كالعجب والكبر والرياء والسمعة والحسد والغِل والحرص وحُبُّ الدنيا والشحناء والغفلة وتحقير المسلمين ونحوها. ثم يُحلَّى بالصفات القلبية الحميدة المباركة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كحبّ الله ورسوله والدار الآخرة والإخلاص والتواضع والحبّ في الله

والبغض فيه والزهد عن زخارف الدنيار والإنابة والتوبة والخشوع والرجاء والخوف والتوكل وغيرها، فإذا تطهر القلب من الرذائل وتحلَّى بالخصال الحميدة تنور بنور الله، فحينئذ يتزكى هذا القلب ويكون صالحًا فيرغب ويشتاق للأعمال الصالحة، ويكره ويتنفر عن المعاصي والأعمال الفاسدة.

وبالمداومة على الأعمال الصالحة وتجنب المعاصي يصل العبد المؤمن رويدًا رويدًا إلى مرتبة الإحسان الواردة في حديث جبريل، وهي أعلى درجات إصلاح القلب وتزكيته.

يقول شيخنا الإمام الربّاني العارف بالله شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي في كتابه: «تلازم الشريعة والطريقة»:-

الطريقة في الواقع هي اسم ثان للإحسان المذكور في حديث جبريل، أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة «الإحسان»، وهو الذي يقال له: «التصوف» أو

«السلوك»، أو سمِّه ما شئت، فإنما هي تعبيرات وألفاظ مختلفة والمقصود واحد، انتهى.

فالخلاصة: أن العمل الصالح في الحياة الدنيا عليه مدار السعادات كلها: في الدنيا والبرزخ والمحشر والآخرة في الجنة.

والعمل الصالح وجوده موقوف على أمرين: (١) العلم (٢) وصلاح القلب.

فالعلم لوحده لا يكفي لوجود العمل الصالح، وصلاح القلب لوحده لا يكفي للعمل الصالح بل لابد من وجود كلا الأمرين معًا لوجود العمل الصالح.

لذلك لما سئل الإمام المصلح الربّاني الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس «جماعة التبليغ»: لماذا جعلتم الشيء الرابع في الأشياء الستة في أصول «جماعة التبليغ»: (العلم والذكر) معًا، مع أن لكل من هذين أهمية عظمى في

الشريعة؟ فقال رحمه الله: لابد من الإثنين معًا، لأن مثالهما كجناحي الطير، فكما أنه لا يمكن لأي طير أن يطير إلا بجناحين، ولا يمكن أن يطير أي طير بجناح واحدٍ، فكذلك المؤمن لا يمكن أن يتمكن من العمل الصالح إلا بوجود هذين الإثنين «العلم والذكر»، فبالذكر صلاح القلب، انتهى.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**لكلّ شيء صقالة وصقالة القلوب: ذكر الله**».

وقد نقل الإمام الحافظ الملاّ علي القاري في شرحه لكتاب «الشفاء»، وذكره غيره أيضًا من علماء المالكية الأفاضل عن الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى أنه قال:

«من تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن جميع بينهما فقد تحقق».

وهذا حق وعدل، فالعلم والفقه لوحده إن لم يكن القلب صالحًا (وهو المقصود من التصوف) فإن صاحبه في خطر أن يتفسق في أي وقت بسبب ارتكابه المعاصي وأعمال الفسق والفجور.

وكذلك من اهتم بالتصوف وأموره وتعمق في أداء العبادات والنوافل والأذكار والمراقبات والمجاهدات السلوكية لذلك وكان جاهلاً ولم يتحصل العلم والفقه ولم يهتم به فإنه يخشى على هذا أن يصبح في أي وقت زنديقًا لفساد عقيدته بسبب جهله واغتراره بأمر يفسد عقيدته.

والجمع بينهما ولا شك أنه هو المطلوب وهو التحقيق والخير كله.

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وجميع المسلمين للإهتمام بكلا الأمرين: العلم وإصلاح القلب، أو: الشريعة والطريقة، فإنه لا غنى لإحداهما عن الأخرى.

Scanned with CamScanner

وصلى الله تعالى على خير خلقه وسيّد رسله وخاتم أنبيائه سيدنا وحبيبنا وقرة أعيننا ونبيّنا ومولانا محمد النبيّ الأمي الكريم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه أجمعين، وبارك وسلّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

كتبه الفقير إلى رحمة ربه الكريم

عبد الحفيظ ملك عبد الحق المكي

Scanned with CamScanner